حاضرة بوسمغون في المصادر المغربية أثناء العصر الحديث.

محمد الكبير فيقيقي،
جامعة بشار

المقدمة:

لم تحظ الحواضر الصحراوية في الجزائر والمغرب العربي عموما بالعناية اللازمة، من حيث البحث والدراسة التاريخية المتخصصة، رغم الدور المحوري والرئيس الذي ساهمت به تلك الحواضر في تاريخ بلاد المغرب العربي والصحراء الكبرى قديما وحديثا. والحاضرة أوالمدينة في البيئة الصحراوية تعرف بالقصر أوالقصبة حيث تتجمع المنازل في صعيد وكأنها غرف لقصر واحد.

وقصر بوسمغون يشكل إحدى الحواضر والمراكز الإستراتيجية في العصر الحديث، رغم صغر حجمه الطبيعي والبشري، مقارنة بالحواضر الأخرى المشهورة على مستوى شمال البلاد وجنوبها، تلك المكانة المحورية رصدتها المصادر المغربية، خصوصا الرحلات الحجازية خلال الفترة الحديثة، باعتبار أن معظم الرحلات في تلك الفترة كانت على الطريق البري بدل البحري، وشكلت الصحراء الجزائرية الطريق المفضل لركب الحجاج من جهة والقوافل التجارية من جهة أخرى، وعلى ذلك الطريق يقع قصر بوسمغون كمحطة أساسية .

وتزداد أهمية المصادر المغربية في هذا الموضوع، أمام ندرة المصادر الأخرى المرتبطة بالقصر، أي الإرث المكتوب والمصادر المادية، باستثناء المخلفات العمرانية من محلات تجارية وساحات خاصة بالأسواق ومخازن لمختلف السلع والمنتجات، وإسطبلات خاصة بالدواب والحيوانات، وأسوار ضخمة وعالية محيطة بالقصر، إلى جانب مقابر عديدة مبعثرة على أطراف واحة القصر، ومخلفات قصور بائدة، كل هذه الآثار مازالت بحاجة إلى دراسات عميقة ومتأنية، كما يتوفرالقصرعلى مواقع لاتزال تحتفظ بأسماء أولائك الفاعلين بالمنطقة مثل منخفض المولى إسماعيل الملك العلوي، وعين سيدي الشيخ نسبة إلى عبد القادر بن محمد المشهور بسيدي الشيخ مؤسس الطريقة الشيخية المعروفة .

ومما زاد في صعوبة العثور على مصادر مكتوبة، طبيعة سكان القصر الذين ينحدرون من أصل امازيغي، فاللغة الامازيغية على مستوى قصور الجنوب الغربي الجزائري لم تكتب بأبجدية امازيغية اوبابجدية أخرى، فظلت الرواية الامازيغية الشفوية السبيل الوحيد للتواصل اللغوي بين أبناء القصر والقصور الامازيغية الأخرى المجاورة، ولازال القصر يحتفظ بتلك الخاصية إلى يومنا، رغم حركة التعريب التي تأثر بها على اثر توافد المجموعات العربية إلى الجنوب الغربي، منذ القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي حيث وصل إلى المنطقة الأشراف الادارسة . (السلاوي الناصري.1954 :81)، ثم توالت المجموعات الأخرى مثل بنوهلال(ابن خلدون ،ع.ج7، 1959 :90)

أما عن تحديد فترة الدراسة بالقرنين 17و18م أي أثناء الحكم العثماني بالجزائر أوالحكم السعدي ثم العلوي بالمغرب الأقصى فتتحكم فيه عوامل عديدة منها:

❖ أن الرحلات الحجازية المغربية في العصور الوسطى، كانت في معظمها على الطريق البحري .أي أن الصحراء الجزائرية لم تكن معبرا لتلك الرحلات.

❖شهد العهد العثماني اكبر موجة للرحلات الحجازية على الطريق البري، حيث اجتازت الصحراء الجزائرية في رحلة الذهاب إلى البقاع المقدسة بالحجاز، وكذلك في رحلة الإياب إلى الديار، لاسيما فترة القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين (سعد الله،ا.1990: 197)

كما أن القرن التاسع عشر الميلادي عرف تحولا خطيرا في مسار الرحلة، فأصبح الرحالة يختارون الطريق البحري على البري، لظروف أمنية وسياسية بالدرجة الأولى، ارتبطت بالاجتياح الاستعماري للمنطقة .

سأتناول الموضوع بعد هذه المقدمة وفقا للخطة الآتية:

- **المصادر المغربية المعتمدة:** باستعراض أهمها في البحث.
- **جغرافية القصر:** يتضمن تعريفا بالمجال الجغرافي لقصر بوسمغون.
- **مكانة القصر الاقتصادية:**يشمل عوامل ومظاهر انتعاش القصر اقتصاديا.
- **الأهمية الإستراتيجية:**أي اتخاذه كملجأ للتحصن أوكقاعدة عسكرية ومركز إمداد

ودور القصر في استقطاب العديد من أقطاب التصوف مثل الشيخ احمد التيجاني.

- **خاتمة:**استخلصت فيها أهم نتائج البحث

1- المصادر المغربية المعتمدة:

أما أهم المصادر المعتمدة في هذه الدراسة فيمكن تصنيفها إلى مجموعتين:

- مجموعة من الرحلات المغربية الحجازية، ويمكن ترتيبها حسب تسلسلها الزمني على النحوالآتي

- **الرحلة العياشية الكبرى:**نسبة إلى أبي سالم العياشي من بلدة ايت عياش بصحراء المغرب الأقصى، رحل ثلاث مرات إلى الحجاز خلال 1649- 1654- 1661م، تعرف رحلته بماء الموائد، (العياشي،س.الاقتفاء.1996: 21) وهي من أغنى الرحلات الحديثة.واكثرهااهتماما بصحراء الجزائر وقصورها.

- **الرحلة العياشية الصغرى :**وهي عبارة عن رسالة مطولة، كتبها العياشي لتلميذه احمد بن سعيد المجيلدي سنة 1657م، وهوفي بدء طريقه إلى الحج، وقد

زوده بإرشادات عن الأمتعة التي يصطحبها معه، وعن طريق الحج ومنازله، وعرفه بالمياه الصالحة وبالمشتريات النافعة...فقسم طريق الحج إلى محطات.

- **الرحلة الناصرية :**لأحمد بن محمد بن ناصر الدرعي التمجروتي، المتوفى سنة 1717م، رحل إلى المشرق عبر الصحراء الجزائرية ثلاث مرات:1684- 1697- 1709م، وهوعالم صوفي، محدث، أصبح شيخا للزاوية والطريقة

الناصرية المشهورة بعد وفاة والده الشيخ محمد بن ناصر مؤسس الطريقة والزاوية، ولذلك كان له اهتمام خاص أثناء رحلته بنشر
طريقته الصوفية. (الافراني م.2004: 364)

- **الرحلة الحجازية الكبرى:**لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام بن عبد الله بن محمد بن ناصر الدرعي، احد أحفاد الشيخ ابن ناصر وكذا شيخ الزاوية الناصرية بتمجروت الدرعية، له رحلتان الأولى تعرف بالصغرى قام بهاعام1776م والثانية تعرف بالكبرى قام بها سنة 1781، ألفها سنة 1784 م توفي عام 1823م. (الكتاني.ع1986 : 843- 844)

يشترك هؤلاء الرحالة في ميزة أساسية فاعلة ومؤثرة في مجتمعات العصر الحديث خصوصا، وهي خاصية الانتماء إلى طريقة صوفية واحدة، ممثلة في الطريقة الناصرية المتفرعة عن الطريقة الشاذلية الأم، وهذا ما يسر أمامهم طريق الرحلة الشاقة، فكلما نزلوا منزلا من المنازل وجدوا من يستقبلهم من أتباع طريقتهم، والفضل في ذلك يعود إلى الشيخ المؤسس محمد بن ناصر، المتوفى سنة 1675م، الذي استطاع أن يكسب الكثير من الأتباع في بلاد المغرب والمشرق اثناءرحلاته إلى الحج وما حصل له من القبول لدى الأعيان والعامة . (الافرانيم.:299- 300) . وينتمي هؤلاء الرحالة أيضا إلى بيئة صحراوية في بلاد المغرب، مثل بلاد سوس الدرعية وتافيلالت، وبفضل ذلك انسجموا مع الوسط الصحراوي الجزائري وتفاعلوا معه.

- مجموعة من مصادر خاصة بالطريقة الصوفية التيجانية، ألفها مغاربة بعد استقرار الشيخ احمد التيجاني بحاضرة فاس وخروجه من قصر بوسمغون موطن تأسيس الطريقة منذ سنة 1798م، ولذلك اهتمت هذه المصادر بالقصر ومن أهمها:

جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض أبي العباس التيجاني:لعلي حرازم بن العربي برادة المغربي الفاسي، من أكثر المقربين والملازمين للشيخ التيجاني، وهذا الكتاب هوخلاصة ما أملاه شيخه التيجاني عليه، ألفه عام 1214هج - 1800م، وبالتالي فهوأول مصدر معتمد لدى الطائفة التيجانية، يتضمن سيرة الشيخ التيجاني وأصول وتعاليم طريقته.

❖**بغية المستفيد لشرح منية المريد:**لمحمد العربي بن محمد السائح المكناسي مولدا والرباطي إقامة ووفاة، توفي عام1309 هج- 1892م، وهذا الكتاب هوشرح أرجوزة في سيرة وطريقة الشيخ التيجاني

❖**كشف الحجاب عمن تلاقى مع الشيخ التيجاني من الأصحاب :**لأحمد بن الحاج العياشي سكيرج المغربي الفاسي المتوفى عام 1385هـ- 1965م، وهوكتاب جامع لأهم مصادر الطريقة التيجانية خاصة مراسلات الشيخ التيجاني .
كما استعنت بمصادر أخرى مكملة للمصادر المذكورة.

2- جغرافية قصر بوسمغون :

ينتمي القصر إلى مايعرف حاليا بالجنوب الغربي الأعلى، الذي هوجزء هام من الصحراء الجزائرية الكبرى.كما يشكل همزة وصل ونقطة انتقال بين الشمال الغربي الجزائري والجنوب الغربي الأوسط (الساورة)، والأسفل (توات وكورارة)،

يتداخل مع المجالين، فقسم منه وهوالشمال ينتمي إلى ما يعرف بالهضاب العليا، والقسم الأخر الجنوبي ينتمي إلى الهوامش الشمالية للصحراء، فظل بذلك مركز عبور للقوافل التجارية باتجاه أعماق الصحراء (الوزان.ج 2 .1983 : 133).

قصر بوسمغون يحتل القسم الأوسط من الجنوب الغربي الأعلى، وحسب التقسيم الإداري الحالي فهوينتمي إلى ولاية البيض، يحده من الشمال بلدية الشلالة الظهرانية ومن الجنوب بلدية البنود ومن الشرق الأبيض سيدي الشيخ ومن الغرب بلدية عسلة الملحقة بولاية النعامة، تبلغ مساحته 82 .584 كلم مربع، أما عدد سكانه فيقدر بحوالي: 5000 نسمة حاليا، تأسس كفرقة إدارية خاصة سنة 1956 ثم تحول إلى بلدية إدارية سنة 1961م رغم قلة عدد سكانه في العهد الاستعماري. (بلدية بوسمغون)

عرف القصر بعدة تسميات منها " واد الأصنام" و"واد الصفاح " ثم القصر الأسعد كما سماه الشيخ احمد بن المختار التيجاني عندما حل به سنة 1781م، (بلدية بوسمغون) وأقدم ذكر لاسم بني سمغون أوبني سمجون في حدود اطلاعي أورده الشريف الإدريسي أبوعبد الله، في مؤلفه "نزهة المشتاق"(ص:125) منذ منتصف القرن السادس الهجري، أثناء حديثه عن قبائل البربر وفروعها المختلفة

أما حدوده الطبيعية فيمكن إجمالها في سلسلتين جبليتين عظيمتين إحداهما في الغرب تعرف بجبال" تانوت"وهي كلمة امازيغية تعني البئر، والسلسلة الثانية تقع في شرق القصر وتسمى بالامازيغية جبال" تامدة "تعني" ماتت هنا" أي أن تلك الجبال هي امتداد لسلسلة جبلية طويلة انتهت عند جبال تامدة.وهذا ما وفر للقصر منذ القديم حصانة طبيعية لاسيما انه يقع في منخفض عميق بين السلسلتين عرف عند الرحالة بخنق أبي سمغون (الدرعي احمد، الرحلة الناصرية: 17)، ومن جهة أخرى فان هذه السلاسل التي هي امتداد لسلسلة الأطلس الصحراوي، صعبت حركة الحجاج والمسافرين والرحالة، ليمكثوا بذلك في القصر أياما معدودات.

إن هذا الموقع الذي يتوسط الجنوب الغربي الأعلى الجزائري جعل القصر شديد التفاعل والاتصال بالقصور الامازيغية الأخرى المجاورة له، الجزائرية منها والمغربية .وهويشترك معها في نفس الخصائص تقريبا، حيث لاحظ "روني باسي " أن اللهجات التي يتحدث بها سكان الواحات مثل : "تيوت وبوسمغون والمغراروالشلالة وعسله وايش وفجيج" متشابهة تمام التشابه، وان المنطقة الممتدة مابين عمالة وهران إلى حدود تافيلالت تتحدث بلغة بربرية)René/b.1885/303واحدة.

بفضل ذلك الموقع أصبح القصر يشكل همزة وصل بين التل والصحراء، ويحتل المركز في الطريق المؤدية من تافيلالت إلى الاغواط وميزاب، وبالتالي نقطة التماس بين الجزائر العثمانية والمغرب السعدي وكذا العلوي، بتفاعله مع الحواضر الكبرى بالجزائر مثل تيهرت وتلمسان، وبالمغرب الأقصى مثل تافيلالت وفجيج.

3- مكانة القصر الاقتصادية:

بدأ القصر يتحول إلى مركز تجاري واقتصادي فاعل، منذ أن تدفقت عليه وعلى منطقة الجنوب الغربي، عناصر عربية وإسلامية متنوعة عقب حركة الفتح

الإسلامي لبلاد المغرب والأندلس، فإلى جانب العنصر الامازيغي ألزناتي المتواجد بالقصر وبالمنطقة منذ أقدم العصور، استوطن المنطقة العنصر الإسلامي العربي عبر مراحل متلاحقة، ، ففي القرن4هج- 10م سكن المنطقة الشرفاء الادارسة الذين نزحوا إليها بقيادة عيسى بن عبد الرحمان الشريف الإدريسي، في أعقاب المذبحة التي تعرض لها هذا الفرع من الادارسة بفاس على يد موسى بن أبي العافية حوالي سنة 317هج- 929م في منتصف القرن 5هج- 11م جاءت قبائل صنهاجة إلى المنطقة، حيث وصلت مع الزحف اللمتوني المرابطي، وفي نهاية القرن 6هج وبداية القرن 7هج (13- 14م)وصلت مجموعة من القبائل الهلالية من بني عامر بن زغبة إلى المنطقة (ابن خلدون، ع، 1959 : 90) وهي التي تمثل حاليا كبرى القبائل العربية بالمنطقة، مثل أولاد زياد والحميان والعمور...أما قبيلة أولاد سيدي الشيخ البوبكرية فلقد)louis- 351:rinn.1884 استقرت بالمنطقة منذ القرن 15م .

لقد أدى هذا التنوع البشري إلى ظهور مجموعتين متباينتين من حيث أسلوب العيش والحياة، أولهما مستقرة في القصر تمارس النشاط الفلاحي بالدرجة، والثانية متنقلة موما، تمتهن حرفة الرعي وتربية المواشي أساسا، وهذا ماسا عد في تنوع النشاط الاقتصادي ازدهار حركة المبادلات التجارية

ومن العوامل المساعدة على حيوية هذا المجال اقتصاديا ودينيا، وقوعه في طريق القوافل التجارية من جهة، وركب الحجاج المغاربة من جهة أخرى، فحركة القوافل التجارية الصحراوية: نشطت خلال العصر الوسيط والحديث، واستمر نشاطها حتى القرن التاسع عشر الميلادي، حيث قضى عليها الأوروبيون واحدة تلوى الأخرى (بوعزيز.ي.1999 :110).احد فروع طرق القوافل كانت تمر على الجنوب الغربي الأعلى وبالتحديد على قصر بوسمغون مثل الطريق الذي يبدأ من الخيثر إلى البيض والأبيض سيدي الشيخ والمنقب وتوات.(بوعزيز:112).لقد ساهم سكان القصر في هذه التجارة بأشكال مختلفة وكذلك أعراب المنطقة عن طريق وسائل النقل التي يملكونها، لاسيما الإبل، وبعض السلع التي ينتجونها مثل المنتجات الصوفية والنسيجية، كما أن بعض تجار الإقليم كانوا يصاحبون القوافل في رحلة الذهاب والإياب.

أما مسالك وطرق الحجاج المغاربة فقد اختلفت من عصر إلى آخر، حسب الظروف الأمنية المرتبطة بالوضع السياسي والاقتصادي، ففي القرون الوسطى كانت اغلب الرحلات عن طريق البحر، وخلال العصر الحديث أصبح الكثير من الرحالة يفضلون الطريق البري عبر الصحراء، لتحسن الحالة الأمنية وانتعاش حركة التجارة وتعدد التجمعات البشرية، كما اختلف مسار رحلة الحجاج في هذا المجال الصحراوي، فهناك من كان يجتازه عبر محاوره العميقة، مثل الساورة وتوات وكورارة وتديكيلت.وفريق آخر كان يعبره من أطرافه الشمالية، أي مرورا بقصور الجنوب الغربي الأعلى باعتباره الطريق المختصر.

إلى جانب هذين العاملين الأساسين ساهمت عوامل أخرى في ازدهار الحركة الاقتصادية بالقصر، مثل استقرار الأوضاع الأمنية، حيث يشير الرحالة العياشي إلى تلك الاحتياطات الأمنية الصارمة التي كان يتخذها سكان القصر بمختلف طبقاتهم

تحسبا لأي مداهمة خارجية، فيذكر العياشي عندما حضر صلاة العيد بالقصر، أن من عادة سكانه الخروج إلى المصلى بسلاحهم، لايخرج احد بغير سلاح، صغيرا كان أوكبيرا، ويبنون في المصلى أحجارا يتخذونها غرضا للرمي بالبنادق .(العياشي، الرحلة الكبرى:225)

ومما ساعد على حيوية المبادلات وحريتها، أن القصر ظل في معظم المراحل التاريخية متحررا من أي هيمنة فعلية سياسية للدول القائمة بجواره في الجزائر والمغرب ، فتحول إلى مركز للتجارة الحرة، هذا العامل ينسحب على اغلب المناطق الصحراوية الأخرى، فاندفعت أركاب الحج المغربية إلى اختيار الطريق الصحراوي بدل الشمالي .

صنف الرحالة المغاربة قصر بوسمغون ضمن المحطات التجارية الأكثر أهمية لدى المسافرين والحجاج والعابرين للصحراء، فالعياشي في رحلته الصغرى ينصح تلميذه المجيلدي بان يتزود بالزاد والأمتعة من مراكز بعينها، منها مركز بوسمغون الذي يأتي في المرحلة الثالثة على خط سير الرحلة بعد محطة تافيلالت ثم محطة فجيج، رغم وجود محطات أخرى بين المراكز الثلاث الرئيسية، باعتبار أن تلك المحطات لا تشكل أهمية لدى الحجاج والمسافرين كنقاط للتزود بما يحتاجه المسافر، وبعد أن يتزود الركب في بوسمغون بالأعلاف والزاد لسبعة مراحل أوثمانية يتجه نحوالمحطة الرابعة وهي قصر عين ماضي بالصحراء الوسطى. ونبه العياشي تلميذه في حالة ما إذا باع متاعا في فجيج وبوسمغون، وقبض قدرا من دراهم تلك القصور، أن لا يتجاوز بها أعمال بوسمغون، وتلك الدراهم تعرف ب(الزياني).(العياشي.الرحلة الصغرى:306)، ونسجل هنا إشارة إلى وحدة عملة التعامل في ذلك النطاق.وارتباطه لفترة معينة بالدولة الزيانية بتلمسان حيث استعان الزيانيون بقبيلة بني عامر العربية في إخضاع تلك القصور الامازيغية الزناتية بين الحين والآخر، وسوف يتخذ أبوحموالزياني من المنطقة وقصر بوسمغون تحديدا ملجأ للتحصن كما سيأتي تفصيله.

من أهم المنتجات والسلع التي كانت تلقى رواجا في القصر وبقية القصور المجاورة، بين أوساط الحجاج والعابرين لذلك المجال مايلي:

- أعلاف الدواب: خصوصا الزرع، وعليها تتوقف استمرارية الرحلة .
- الدقيق: الذي يمثل الغذاء الضروري للحجاج والمسافرين وعليه تتوقف حياتهم .
- السمن اوالدهان :وهواحد مشتقات الحليب، يستخدم مع معظم الأغذية والوجبات

لأنه يقوي الجسم ويساعده على تحمل مشاق السفر، خصوصا في فصل الشتاء

والسمن من أكثر المواد الغذائية وفرة في القصور.(العياشي.الرحلة الكبرى:224) وهذا المنتوج الحيواني يستقدمه الأعراب والرعاة إلى القصور، ويدر على أصحابه

أرباحا طائلة .

- الحيوانات أوالدواب:تشمل الإبل والحمير والبغال والخيول، باعتبارها وسيلة النقل الوحيدة في ذلك العصر، فلقد اضطر العياشي إلى بيع ناقته التي كان يحمل عليها كتبه، في قرى أربا، من اجل شراء ما يحتاجه الحجاج من الغذاء، لان الرحلة من الاغواط إلى أربا كانت شاقة جدا، كما اضطر العياشي للمرة الثانية لشراء حمار من بوسمغون يستعين به في استكمال رحلته إلى فجيج لان فرسه هلك في الطريق(العياشي.الرحلة الكبرى:224).

- الأكسية والبرانس:كان الحجاج يشترونها من القصور، خصوصا إذا تزامنت الرحلة مع فصل الشتاء، مع العلم أن القصور تتميز ببرودة شديدة، لأنها تتأثر إلى حد كبير بمناخ الهضاب العليا.

خصصت أسواق لتلك السلع على مستوى القصور، بمناسبة موسم الحج أهمها سوق قصر فجيج، يجتمع فيها التجار من القصور المجاورة وأعراب المنطقة، من قبائل حميان والعمور وأولاد جرير وذوي منيع وغيرها...فضلا عن الزائرين والمتبركين بآثار الأولياء الصالحين، مثل ضريح الإمام الشريف سيدي عبد الجبار الفجيجي. (الدرعي.محمد بن عبد السلام.الرحلة الكبرى.1784 :92). ومقام سيدي أبي سمغون مولاي احمد الذي سمي القصر باسمه، حيث يذكر أبوالقاسم الحفناوي أن محمد بن عبد السلام الدرعي صاحب الرحلة قد اجتمع بجمع من العلماء عند مقام أبي سمغون .(الحفناوي، أ، ج2، 1991 :417)

إن الموقع الجغرافي لبوسمغون بين طرفي الجنوب الغربي الأعلى الشرقي والغربي سهل على سكانه احتراف مهنة إرشاد وتوجيه أركاب الحج وقوافل التجارة في الطريق الصحيح، لا سيما منطقة الأطلس الصحراوي، لأنها جبلية ويتعذر فيها اختيار الطريق السهل المنبسط، حيث يذكر احمد بن محمد بن ناصر الدرعي، أنهم استأجروا عندما وصلوا إلى فجيج رجلا يرشدهم في الطريق إلى بوسمغون بمثقال اسمه محمد بن عيسى، أصله من بوسمغون. (الدرعي.احمد بن محمد.الرحلة الناصرية:17)، ولما بلغ الكراكدة استأجروا رجلا من بوسمغون أيضا يهديهم الطريق إلى الاغواط بمثقالين اسمه محمد المختار، وهوطالب يحفظ القرءان وله خبرة في زيارة البلدان.(الدرعي.احمد الرحلة الناصرية:19).

كان المجتمع في القصر والقصور المجاورة يتعامل بالدنانير الذهبية الزيانية، أي بقيمة عملة الدولة الزيانية البائدة، وكذلك وحدة التبر بالوزن الزياني، في حين أن الحجاج المغاربة كانوا يستقدمون معهم عملة الريال الاسبانية لأنها نافذة في كل المحطاتِ (العياشي.الرحلة الصغرى:306)، وكان الريال يصرف بـ6 أواق، كما كان مساويا للدينار الذهبي العلوي، بينما المثقال يأتي في الدرجة الثانية بعد الريال من حيث شيوعه بين الحجاج، وهويعرف في المغرب بالموزونة الفضية، يعادل 10دراهم فضية.

اشتهر قصر بوسمغون بين الرحالة بالأسعار الرخيصة لمنتجاته، حيث يصرح العياشي عند دخوله القصر في طريق العودة إلى المغرب بقوله :"نزلنا بوسمغون عند المغرب ووجدناه ارخص من كثير من البلاد التي مررنا عليها قبل ..."، (العياشي،

الرحلة الكبرى:224)، هذه الخاصية التي تميز بها قصر بوسمغون عن باقي القصور المجاور، يمكن تفسيرها بالخصائص التالية:

- الرخاء الاقتصادي بسبب اتساع واحته وتعدد منتجاته، حيث أبدى احمد بن ناصر الدرعي دهشته وهويصف عنب بوسمغون قائلا:"واتوا بعنب لم أر مثله حلاوة وطولا ومنذ أن خرجنا من بلدنا لم أر مثل عنبه إلى هذه البلدة." (الرحلة الناصرية: 18) . ومن مظاهر الرخاء في القصور عموما المبالغة في إكرام الضيوف وخصوصا إذا كانوا من الحجاج، حيث يقول الدرعي عندما نزل ببوسمغون ضيفا مع أصحابه عند الحاج الشيخ بن المرابط مفتاح:"واتوا بإناء من طعام عليه نصف شاة لحما...(الرحلة،ن:18)، وفي قصر الغاسول أكرموه بشاتين، بينما أكرموا احد المصاحبين له وهوالشيخ عبد الكريم التواتي بتسع شياه.(الرحلة،ن:18)

- قصر بوسمغون من أكثر القصور أمنا، إذ أن أسواره عالية ومتينة، وما زالت إلى يومنا شامخة، وهومحصن طبيعيا، تحيط به سلسلتان جبليتان سبق ذكرهما.لان اضطراب الأحوال الأمنية كثيرا ماكان يتسبب في الغلاء الفاحش للأسعار، فالعياشي يشير إلى وجود غلاء فاحش بقصر الكراكدة، ويبرر ذلك بالغارة التي تعرض لها أهالي القصر من طرف خيول قبيلة العمور، كما سبق وان أغار عليهم عرب الشريف مولاي محمد صاحب تافيلالت (الكبرى:224.). ويسجل أيضا محمد بن عبد السلام الدرعي غلاء شديدا وفتنة عظيمة، أثناء دخوله القصور الفجيجية.(الرحلة:622). بسبب النزاعات بين الأسر المستقرة والعائلات المتوافدة عليها من جهات وقصور أخرى.

هذه المكانة الاقتصادية كان لها الفضل الكبير في اكتساب القصر خاصية الموقع الاستراتيجي بالنسبة للسياسيين واعيان التصوف.

4 الأهمية الإستراتيجية:

أ- بالنسبة للسياسيين:

لقد استعصى القصر وكذا قصور المنطقة على الدول المجاورة لها لوقوعها بين سلسلة الأطلس الصحراوي وبعدها عن عواصم الدول القائمة آنذاك، ولم تخضع إلا في حالات نادرة، ولذلك كانت تتخذ كملجأ للفارين والمطاردين مثل ما حدث مع الخوارج الرستميين عقب سقوط دولتهم بتيهرت، أوكانت تتخذ كقواعد عسكرية للتوسع والتحصن، أو موطن لتأسيس الطريقة الصوفية ونشر تعاليمها وأورادها، ويتجلى هذا الدور من خلال الأحداث التاريخية التالية:

- في إطار الصراع الزياني المريني، أثناء القرن التاسع الهجري (15م)تمكنت جيوش السلطان المريني عبد العزيز ومن انضم إليه من عرب معقل ورياح وغيرها بقيادة وزيره "ونزمر"من مطاردة الملك الزياني أبا حموالثالث وحلفائه بني عامر نحوالصحراء، واضطر إلى مفارقة أبنائه مدة ثم اجتمع بهم في قصر أبي سمغون الواقع بأراضي بني عامر الجنوبية في أواخرذي القعدة773هـ- 1372مثم استقر بتيقورارين في جنوب الصحراء مما يتاخم بلاد السودان، بعد أن ترك أبناءه في أبي سمغون وأحياء بني عامر آخر سنة773هـ- 1372 م (ابن خلدون، يحي ج2، 1903 : 259) وكان السلطان

عبد العزيز المريني قد اتخذ تلمسان مقرا له، وبها أصيب بمرض خطير، توفي على إثره في 22ربيع الثاني 774هـ- 1373م(ابن خلدون، يحي: 270- 271).وبعد انحسار الغزوالمريني عن المغرب الأوسط، عاد أبوحموالثاني من المنفى بالصحراء إلى تلمسان مع أنصاره من عرب يغمور بن عبدالله من أولاد خراج برئاسة عبدالله بن صغير أحد زعماء عرب بني عامر(ابن خلدون، يحي: 308- 309)، (ابن خلدون.ع.ج7. 1959 : 684)، ومنذ ذلك الحين تشتت بنوعامر بن زغبة الهلاليين بين قصور الإقليم.

ومن هنا تتضح أهمية قصر بوسمغون كحصن للاحتماء وتحقيق الأمن حيث أن السلطان أبا حموالثاني لم يامن على أبنائه إلا لما تركهم في القصر تحت حماية حلفائه بني عامر.

- في إطار الصراع بين السلطة السياسية في الجزائر العثمانية والمغرب العلوي، تمكن السلطان العلوي مولاي إسماعيل (1672- 1727م)ضمن سياسته التوسعية على حساب الأطراف الغربية الشمالية أوالجنوبية للجزائر، من الاستيلاء

على قصر بوسمغون على يد احد أبنائه وإقامة حامية عسكرية به، ظلت قائمة طوال المدة مابين 1710و1713م، وذلك من اجل الاستيلاء على المناطق المجاورة خصوصا منطقة البيض.(جوليان.ش.1983: 298). إن بقاء الحامية بالقصر طول تلك المدة، مع بعدها عن مراكز الإمداد في المغرب الأقصى، يدلل على مدى أهمية القصر التجارية والاقتصادية عموما.

- عرفت الجزائر العثمانية منذ نهاية القرن الثامن عشر الميلادي عدة ثورات ضد نظام الدايات التركي، تزعمتها الطرق الصوفية وفي مقدمتها الطريقة الدرقاوية ثم التيجانية، ففي عام 1826م ثار المرابط محمد الكبير التيجاني (الابن البكر للشيخ احمد التيجاني مؤسس الطريقة التيجانية) ضد باي وهران "حسن" فجمع عساكره من الصحراء، من قصربوسمغون(موطن تأسيس الطريقة التيجانية) ومن قصر عين ماضي (مسقط رأس التيجاني المؤسس) بينما أخوه محمد الصغير أوالحبيب فقد تحصن ببوسمغون، فنازل الثائر التيجاني قوات الباي عند سهل غريس بالقرب من مدينة معسكر فقتل الثائر وجيشه عن آخرهم، " وتعجب كل من حضر من صلابة أولائك الناس وشجاعتهم، ولوكان منهم ألف لم يلاقه إلا الجيش العرمرم، فالله يغفر لنا ولهم وللمسلمين." (عبد القادر الجزائري، 1995 :125)

يتضح من خلال هذه الوقعة المؤلمة، دور القصر كمركز للإمداد بالجيش وموطن للتحصن، وكذلك صلابة أهله في القتال رغم بعد المسافة بين مكان المعركة ومراكز الإمداد والتموين في الصحراء.

- ب- بالنسبة لأقطاب التصوف:

تبدوأهمية القصر واضحة في استقطاب رجال الصلاح والتصوف، من خلال الآثار الباقية إلى الآن، من قباب وأضرحة وأماكن خلدت أسماء أولائك الأولياء والصالحين، الذين مكثوا بالقصر أومروا به، ومن تلك الآثار ضريح الولي سيدي أبي سمغون الذي حمل القصر اسمه إلى يومنا هذا، بينما تحتفظ الذاكرة الشعبية بأنه قدم من منطقة الساقية الحمراء أوبلاد شنقيط متوجها لأداء فريضة الحج فنزل بالبلدة ووجدها حينئذ قصورا متناحرة، فتوسم فيه أعيان البلدة الصلاح وطلبوا منه أن يصلح

بين الأطراف المتنازعة، وانشغل بهذه المهمة العسيرة وعزف عن أداء فريضة الحج، وأصلح بين الأطراف المتنازعة وبمرور الوقت اجتمع سكان القصور المتنازعين في قصر واحد وهوالذي لازال قائما إلى يومنا هذا، والآثار الباقية تدلل على ذلك بما في ذلك ضريح أبي سمغون، وأثناء عملية ترميم الضريح عثر على ثلاث هياكل عظمية احدها كبير الحجم وهويمثل أبا سمغون، واثنان صغيران يعتقد أنهما لأبنائه.

ومن الآثار الباقية أيضا العين المائية المسماة عين سيدي الشيخ، نسبة إلى الولي عبد القادر بن محمد السماحي الصديقي مؤسس الطريقة الشيخية، رغم أن المصادر المكتوبة المتوفرة بين أيدينا لا تذكر نزوله ببوسمغون، إلا أن ذكرها لنزوله بقصر الشلالة، وهوقصر قريب جدا من بوسمغون بحوالي 20 كلم، لا ينفي تردد سيدي الشيخ على القصرين، كما حدث مع الشيخ التيجاني الذي كان يتحرك بين القصرين (الشرقي، البغية، 2003: 166) لشدة الارتباط بينهما، مع العلم أن التنقل المستمر هوالسمة الغالبة على حياة أعيان التصوف والصلاح آنذاك .

يعتقد الكثير من المهتمين بمجال التصوف والطرق الصوفية أن الطريقة التيجانية تأسست في مدينة عين ماضي بالاغواط أومدينة فاس المغربية، والحقيقة أنها تأسست بمدينة بوسمغون سنة 1196 هج- 1782م، وفيها حصل له الفتح الأكبر، وهوعند الطائفة التيجانية رؤية التيجاني للنبي محمد صلى الله عليه وسلم برأس عينه في حال اليقظة، فتم التخاطب بينهما مباشرة دون أي واسطة في اليقظة لا في المنام، واخذ التيجاني من الحضرة النبوية الشريفة معالم وأصول طريقته الصوفية مباشرة دون وجود واسطة من الشيوخ الآخرين وأمر بإعلان ونشر طريقته بين الناس بعد أن كان محروما من الاتصال بالخلق . ((الفاسي.ع.1997 :40- 41)، ومنذ ذلك الحين والوفود تتوافد عليه من مختلف الأصقاع، وأخذت طريقته تنتشر في البلاد القريبة والبعيدة بفضل أركاب الحج وقوافل التجار ووفود الزوار والمتبركين، حيث مكث في القصر من سنة 1781م إلى 1798 م، أي حوالي سبعة عشر سنة، وبعدها انتقل إلى حاضرة فاس إلى أن توفي بها سنة 1230هج- 1815م، ومنها ملأت الطريقة التيجانية الآفاق .

إن اختيار التيجاني لقصر بوسمغون كموطن أول لتأسيس طريقته تتحكم فيه عوامل عديدة، فمصادر الطريقة التيجانية تتفق على أن الإلهام الإلهي والحس الصوفي للشيخ التيجاني، أثناء أقامته بتلمسان ما بين 1774و1780م، هوالذي جعله يشعر أن الفتح الأكبر سوف يأتيه بالصحراء دون أن يعرف المكان بالضبط، وبقي يستخير الله عزوجل حتى تبين له أن عليه أن يقصد الولي الصالح أبي سمغون(الفاسي، ع، 1997 :40) بالجنوب الغربي الجزائري، واستوطن أولا بأهله قرية الشلالة، وكان يتنقل بين الشلالة وبوسمغون، مما جعل اغلب المؤرخين لا يذكرون قرية الشلالة، مكتفين بذكر قصر بوسمغون الذي بلغ فيه الشيخ التيجاني مقام القطبانية والفتح الأكبر، وهذا الالتباس نفسه حدث مع الشيخ عبد القادر بن محمد عندما كان يتردد بين القصرين، فذكرت المصادر قصر الشلالة باعتباره موطن الطريقة الشيخية وأبناء سيدي الشيخ، وأهملت ذكر قصر بوسمغون الذي كان موطنا لخلواته .

إن هذا العامل المذكور ليس كافيا لتبرير اختيار الشيخ التيجاني لقصر بوسمغون كمركز أول لطريقته، ومكوثه به مدة 17 سنة، فثمة عوامل أخرى فرضتها ظروف ذلك العصر العصيب، المشحون بالتوتر والصراع بين الأتراك في الجزائر والسلطة العلوية بالمغرب فضلا عن العوامل المرتبطة بالمجال الجغرافي والوضع الاقتصادي، وتتلخص تلك العوامل فيما يلي:

إن المكانة التجارية والاقتصادية عموما للقصر السالفة الذكر، ساهمت إلى حد بعيد في ذلك الاختيار، فلقد منح أهل القصر للتيجاني دارا من أحسن وأفسح الديار في القصر وتشرف على الواحة من أبهى وأجمل واجهاتها، ولازالت تلك الدار قائمة إلى الآن، وهي تعرف حاليا بالخلوة التيجانية، يزورها الناس وأتباع الطريقة التيجانية من كل البقاع، كما أن الرخاء الاقتصادي الذي عاشه التيجاني بالقصر جعله يسميه القصر الأسعد .(الشرقي، م، 2003: 166) ، ومن دلائل ذلك أن أموال التيجاني بالقصر كانت طائلة، فعند مراسلته لأهله في عين ماضي وهويعتذر عن عجزه على تقديم المساعدة لهم اثر تخريب مدينتهم من طرف الباي محمد الكبير سنة 1785م، قال في رسالته :"أعجزتني عن الانتقال إليكم لكوني ثقيل الحمل لا يحملني إلا سبعون بعيرا أوثمانون بعيرا ولا أجدها في هذا الوقت لا عندي ولا عندكم ... ".(العياشي، سكيرج، 1988 :404)

الموقع الاستراتيجي للقصر على خط سير القوافل التجارية العابرة للصحراء واركاب الحجاج المغاربة، وفر للشيخ التيجاني إمكانية التنقل إلى المناطق المجاورة، فكثيرا ما كان ينتقل إلى إقليم توات للقاء الشيوخ والعلماء مثل الشيخ محمد بن الفضيل التواتي (الفاسي، 1997: 40) أوكان ينتقل نحوالشمال للتجارة وشراء الزرع حيث يقول في رسالته السالفة الذكر:" وقد عاجلني في هذه الساعة السفر إلى بلاد انقاد لأجل شراء الزرع الذي أنا محتاج إليه، ولا اقدر على التخلف عنه حتى ساعة لكثرة ما يلزمني من أكل الطعام..." (العياشي، س، 1988 :404). كما مكنه ذلك من نشر مبادئ وتعاليم طريقته بين أوساط الحجاج والتجار والمسافرين.

حالة الاستقرار الأمني في القصر عموما التي تميز بها عن بقية القصور، جعلت التيجاني يكون في مأمن من مطاردة الأتراك العثمانيين له في الجزائر، فلقد ظهرت دعوة التيجاني في الوقت الذي بدأ العثمانيون يتوجسون خيفة من حركة الطرق الصوفية، إذ أن ظهور الطريقة الطيبية في المغرب وارتباطها بالسلطة العلوية هناك، وكذلك ظهور الطريقة الدرقاوية، وانتشار نشاط الطريقتين في الجزائر، ثم تردد التيجاني بين فاس وتلمسان والصحراء، كل ذلك أثار مخاوف العثمانيين في الجزائر، فحاولوا وقف نشاط الطريقتين المذكورتين سالفا، كما حاولوا ضم عين ماضي بالاغواط موطن أهل التيجاني إلى بايلك الغرب، ولذلك توجه الباي محمد الكبير في حملته المعروفة إلى عين ماضي والاغواط وكذلك الشلالة وعاد منتصرا .(سعد الله، أ،

التاريخ الثقافي، ج 1، 1998 : 511- 512) بينما لم يتمكن الباي محمد الكبير من الوصول إلى قصر بوسمغون مكان تحصن التيجاني .ثم استمرت العلاقات في التوتر بين الأتراك في الجزائر والعلويين في المغرب إلى أن انتقل التيجاني إلى فاس واحتضنه السلطان العلوي المولى سليمان ومنحه دارا واسعة بفاس واعتنق طريقته .(الناصري، ج8، 1954 : 104)

لم يستقر التيجاني في القصور المجاورة مدة طويلة مثل الشلالة والأبيض سيدي الشيخ باعتبار أن المدينتين يشكلتان إحدى المعاقل الأساسية للطريقة الشيخية ولقبيلة أولاد سيدي الشيخ البوبكرية، ولقد سبق للشيخ التيجاني أن استقر بالأبيض من اجل التدريس والإفتاء والتفسير في الزاوية الشيخية، حيث مكث هناك خمس سنوات من سنة 1763م إلى سنة 1767 م (الفاسي، ع، 1997: 36).

لم يسعى لتأسيس طريقته في مسقط رأسه وموطن أهله وعشيرته عين ماضي، لأنه يدرك حجم المفاسد والانحرافات في بلدته، ومن عادة أصحاب الدعوات أنهم لا ينصرون في بلدانهم الأصلية، ولقد أبدى استياءه من حال أهله في عين ماضي من خلال رسالة الاعتذار المذكورة سابقا، حيث اعتبر هجوم الباي عليهم لون من ألوان العقاب الإلهي بسبب فسادهم وانحرافهم. (العياشي، س، 1988: 404- 405).

من خلال ما تقدم تبرز الأهمية الإستراتيجية للقصر كمعقل لتأسيس إحدى اكبر الطرق الصوفية في العالم الإسلامي، رغم صغر حجمه مساحة وسكانا، إلا ان ظروف الفترة الحديثة وخصائصه الجغرافية والاقتصادية حولته إلى مركز استراتيجي هام على مستوى بلاد المغرب العربي والصحراء الكبرى.

خاتمة:

لقد مكنتنا المصادر المغربية من رحلات ومصنفات صوفية خاصة بالطريقة التيجانية، وكذلك المصادر الأخرى المكملة، من التعرف على جوانب من الأهمية الاقتصادية والإستراتيجية لحاضرة مغمورة في الصحراء الجزائرية وبالتحديد في الجنوب الغربي الأعلى الجزائري، ارتبط اسمها بأحد الأولياء الصالحين غير المشهورين وهومولاي احمد أبي سمغون الذي لم نجد له ترجمة اواشارة في كتب التراجم المشهورة، إلا أن المجتمع المغاربي في العصر الحديث كان يسعى للتبرك باي اثر يرتبط بأهل العبادة والصلاح، ثم ازدادت

أهمية القصر لما تحول إلى محطة أساسية بالنسبة للحجاج وتجار القوافل المتنقلة العابرة للصحراء،

واتخاذه كقاعدة عسكرية للتوسع والمراقبة، وملجأ للفارين والمطاردين السياسيين، ولكن شهرة القصر ارتبطت أكثر بالقطب الشيخ احمد التيجاني منذ نزوله به والى يومنا.

قائمة المصادر والمراجع

الوثائق:

1- بلدية بوسمغون، مصلحة الشؤون الاجتماعية، تقرير عن القصر في ثلاث صفحات، غير مؤرخ أومصنف.

المصادر المخطوطة

2- الدرعي، احمد بن محمد بن ناصر، الرحلة الناصرية، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية مصور بالميكروفيلم، تحت 1954، ويحتوي على 270ورقة

3- الدرعي، محمد بن عبد السلام بن ناصر، الرحلة الحجازية الكبرى، نسخة مصورة عن النسخة الأصلية بالخزانة الملكية بالرباط، تحت رقم:6904

4- العياشي، أبوسالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر، الرحلة الصغرى، مخطوط مصور عن الأصل الموجود بالمكتبة الوطنية بالرباط- المغرب- تحت رقم ك43 في محفظة ص:303- 316

5- المؤلف السابق، الرحلة الكبرى- ماء الموائد- مخطوط وقف برواق المغاربة في الأزهر الشريف، غير مرقم.

المصادر المنشورة:

6- الإدريسي، أبوعبد الله، 1982، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الجزء الخاص بإفريقيا والأندلس، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، الجزائر.

7- الافراني محمد بن الحاج، 2004م، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تحقيق عبد المجيد الخيالي، ط1، مركز التراث المغربي، الدار البيضاء

8- الحفناوي، ابوالقاسم، 1991م.تعريف الخلف برجال السلف موفم للنشر، الجزائر.

9- ابن خلدون، عبد الرحمان، 1959م، العبر...دار الكتاب اللبناني، بيروت،

10- ابن خلدون، يحي، 1903، بغية الرواد في ذكر الملوك والأولياء من بني عبد الواد، ج2، نشره وترجمه الفرد بل إلى الفرنسية –الجزائر.

11- السلاوي الناصري، خالد بن احمد، 1954م، الاستقصالاخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء.
12- الشرقي محمد العربي بن محمد بن السائح، 2003، بغية المستفيد لشرح منية المريد، بيروت، دار الكتب العلمية منشورات محمد علي بيضون
13- الفاسي، علي حرازم بن العربي برادة، 1997م جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض أبي العباس احمد التيجاني، ط1، تصحيح عبد اللطيف بن عبد الرحمان، بيروت، دار الكتب العلمية.
14- عبد القادر، الأمير، المذكرات، 1995، ط 2، دار الأمة، الجزائر، تحقيق مجموعة من الأساتذة
15- العياشي، أبوسالم، اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، 1996م، تحقيق نفيسة الذهبي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد33
16- العياشي سكيرج احمد بن الحاج، 1988، كشف الحجاب عمن تلاقى مع الشيخ التيجاني من الأصحاب، بيروت المكتبة الشعبية
17- الوزان، الحسن، 1983، وصف إفريقيا، ، ط2، بيروت دار الغرب الإسلامي، ترجمة وتحقيق محمد حجي ومحمد الاخضري .

المصادر بالفرنسية:-

18 - René Basset. 1885, Dialecte oranais et de Figuig. Journal Asiatique. Paris.
19 - Rinn Louis . 1884 Marabouts et Khouan .Librairie. Editeur. Alger.

- **المراجع:**

20- بوعزيز، يحي، ، 1999م، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
21- جوليان، شارل أندري، 1978، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج2، الدار التونسية للنشر والشركة الوطنية الجزائرية للنشر والتوزيع تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة.
22- سعد الله، أبوالقاسم، 2005، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
23- المؤلف نفسه، 1998، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، بيروت، دار الغرب الإسلامي
24- الكتاني، عبد الحي، 1986م، فهرس الفهارس ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، بيروت، دار الغرب الإسلامي، تقديم إحسان عباس.